تفسير سورة القلم

هى اثنتان وخمسون آية . وهى مكية فى قول الحسن وعكرمة وجابر . وروى عن ابن عباس وقتادة أن من أوّلها إلى قوله : ﴿ سنسمه على الخرطوم ﴾ مكىّ ، ومن بعد ذلك إلى قوله: ﴿ من الصالحين ﴾ مدنىّ ، وباقيها مكى كذا قال الماوردى . وأخرج ابن الضريس عن ابن عباس قال : كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة كتبت بمكة ثم يزيد الله فيها ما يشاء . وكان أوّل ما نزل من القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ [العلق : ١] ثم نون . ثم المزمل ، ثم المدثر . وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقى عنه قال : نزلت سورة ن بمكة . وأخرج ابن مردويه عن عائشة مثله .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ (٥) بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ (٦) إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٧) فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ (٨) وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ (١٣) أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ (١٤) إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٥) سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (١٦) ﴾

قوله : ﴿ ن ﴾ قرأ أبو بكر وورش وابن عامر والكسائى وابن محيصن وابن هبيرة بإدغام النون الثانية من هجائها فى الواو ، وقرأ الباقون بالإظهار ، وقرأ أبو عمرو وعيسى بن عمر بالفتح على إضمار فعل ، وقرأ ابن عامر ونصر وابن إسحاق بكسرها على إضمار القسم ، أو لأجل التقاء الساكنين ، وقرأ محمد بن السميقع وهارون بضمها على البناء ، قال مجاهد ومقاتل والسدّى : هو الحوت الذى يحمل الأرض ، وبه قال مرّة الهمذانى وعطاء الخراسانى والكلبى . وقيل : إن نون آخر حرف من حروف الرحمن . وقال ابن زيد : هو قسم أقسم الله به . وقال ابن كيسان : هو فاتحة السورة . وقال عطاء وأبو العالية : هى النون من نصر وناصر . قال محمد بن كعب : أقسم الله تعالى بنصره المؤمنين . وقيل : هو حرف من حروف الهجاء ، كالفواتح الواقعة فى أوائل السور المفتتحة بذلك، وقد عرّفناك ما هو الحق فى مثل هذه الفواتح فى أوّل سورة البقرة ، والواو فى قوله : ﴿ والقلم ﴾ واو القسم ، أقسم الله بالقلم لما فيه من البيان وهو واقع على كل قلم يكتب به ، وقال جماعة من المفسرين : المراد به : القلم الذى كتب به اللوح المحفوظ ، أقسم الله به تعظيماً له . قال قتادة : القلم من نعمة الله على عباده

﴿**وما يسطرون** ﴾ «ما» موصولة، أى والذى يسطرون ، والضمير عائد إلى أصحاب القلم المدلول عليهم بذكره ، لأن ذكر آلة الكتابة تدلّ على الكاتب . والمعنى : والذى يسطرون ، أى يكتبون كل ما يكتب ، أو الحفظة على ما تقدّم ، ويجوز أن تكون « ما » مصدرية ، أى وسطرهم . وقيل : الضمير راجع إلى القلم خاصة من باب إسناد الفعل إلى الآلة وإجرائها مجرى العقلاء ، وجواب القسم قوله : ﴿ **ما أنت بنعمة ربك بمجنون** ﴾ « ما » نافية ، وأنت اسمها ، وبمجنون خبرها . قال الزجاج : أنت هو اسم ما ، وبمجنون خبرها ، وقوله: ﴿ **بنعمة ربك** ﴾ كلام وقع فى الوسط ، أى انتفى عنك الجنون بنعمة ربك ، كما يقال : أنت بحمد الله عاقل . قيل : الباء متعلقة بمضمر هو حال ، كأنه قيل : أنت برىء من الجنون ملتبسا بنعمة الله التى هى النبوة والرياسة العامة . وقيل : الباء للقسم ، أى وما أنت ونعمة ربك بمجنون . وقيل: النعمة هنا : الرحمة ، والآية رد على الكفار حيث قالوا: ﴿ يأيها الذى نزّل عليه الذكر إنك لمجنون﴾ [الحجر: ٦] .

﴿ **وإن لك لأجرا** ﴾ أى ثوابا على ما تحملت من أثقال النبوة ، وقاسيت من أنواع الشدائد ﴿ **غير ممنون** ﴾ أى غير مقطوع ، يقال :مننت الحبل إذا قطعته ، وقال مجاهد : غير ممنون :غير محسوب ، وقال الحسن : غير ممنون: غير مكدّر بالمنّ . وقال الضحاك : أجرا بغير عمل . وقيل : غير مقدّر . وقيل : غير ممنون به عليك من جهة الناس . ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ قيل : هو الإسلام والدين ، حكى هذا الواحدى عن الأكثرين . وقيل : هو القرآن ، روى هذا عن الحسن والعوفى . وقال قتادة : هو ما كان يأتمر به من أمر الله وينتهى عنه من نهى الله . قال الزجاج : المعنى : إنك على الخلق الذى أمرك الله به فى القرآن . وقيل : هو رفقه بأمته وإكرامه إياهم . وقيل : المعنى : إنك على طبع كريم . قال الماوردى : وهذا هو الظاهر ، وحقيقة الخلق فى اللغة : ما يأخذ الإنسان نفسه به من الأدب ، وقد ثبت فى الصحيح عن عائشة أنها سئلت عن خلق النبىّ ﷺ ، فقالت : كان خلقه القرآن [1]، وهذه الجملة والتى قبلها معطوفتان على جملة جواب القسم ﴿**فستبصر ويبصرون** ﴾ أى ستبصر يا محمد ويبصر الكفار إذا تبين الحقّ وانكشف الغطاء وذلك يوم القيامة ﴿ **بأيكم المفتون** ﴾ الباء زائدة للتأكيد ، أى أيكم المفتون بالجنون ، كذا قال الأخفش وأبو عبيدة وغيرهما ، ومثله قول الشاعر :

نحن بنو جعدة أصحاب الفَلَج [2] نضرب بالسيف ونرجو بالفرج

وقيل :ليست الباء زائدة، والمفتون مصدر جاء على مفعول ،كالمعقول والميسور، والتقدير: بأيكم المفتون أو الفتنة ، ومنه قول الشاعر الراعى :

حتى إذا لم يتركوا لعظامه لحما ولا لفؤاده معقولا

---

(١) مسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٦/ ١٣٩) .

(٢)مدينة بأرض اليمامة لبنى جعدة .

أى عقلا . وقال الفراء : إن الباء بمعنى فى ، أى فى أيكم المفتون ، أفى الفريق الذى أنت فيه ، أم فى الفريق الآخر ؟ ويؤيد هذا قراءة ابن أبى عبلة فى أيكم المفتون . وقيل : الكلام على حذف مضاف ، أى بأيكم فتن المفتون ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وروى هذا عن الأخفش أيضاً . وقيل : المفتون : هو الشيطان ، لأنه مفتون فى دينه ، والمعنى : بأيكم الشيطان ، وقال قتادة : هذا وعيد لهم بعذاب يوم بدر ، والمعنى : سترى ويرى أهل مكة إذا نزل بهم العذاب ببدر بأيكم المفتون ، وجملة : ﴿**إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله**﴾ تعليل للجملة التى قبلها ، فإنها تتضمن الحكم عليهم بالجنون لمخالفتهم لما فيه نفعهم فى العاجل والآجل ، واختيارهم ما فيه ضرهم فيهما ، والمعنى : هو أعلم بمن ضل عن سبيله الموصل إلى سعادة الدارين ﴿**وهو أعلم بالمهتدين**﴾ إلى سبيله الموصل إلى تلك السعادة الآجلة والعاجلة ، فهو مجازٍ كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

﴿**فلا تطع المكذبين**﴾ نهاه سبحانه عن مماثلة المشركين ، وهم رؤساء كفار مكة ، لأنهم كانوا يدعونه إلى دين آبائه ، فنهاه الله عن طاعتهم ، أو هو تعريض بغيره عن أن يطيع الكفار ، أو المراد بالطاعة : مجرد المداراة بإظهار خلاف ما فى الضمير ، فنهاه الله عن ذلك كما يدل عليه قوله : ﴿**ودّوا لو تدهن فيدهنون**﴾ فإن الإدهان : هو الملاينة والمسامحة والمداراة . قال الفرّاء : المعنى : لو تلين فيلينوا لك ، وكذا قال الكلبى ، وقال الضحاك والسدّى : ودّوا لو تكفر فيتمادوا على الكفر ، وقال الربيع بن أنس : ودّوا لو تكذب فيكذبون . وقال قتادة : ودّوا لو تذهب عن هذا الأمر فيذهبون معك . وقال الحسن : ودوا لو تصانعهم فى دينك فيصانعونك . وقال مجاهد : ودّوا لو تركن إليهم وتترك ما أنت عليه من الحق فيمايلونك . قال ابن قتيبة : كانوا أرادوه على أن يعبد آلهتهم مدّة ، ويعبدوا الله مدّة ، وقوله : ﴿**فيدهنون**﴾ عطف على تدهن داخل فى حيز لو ، أو هوخبر مبتدأ محذوف ، أى فهم يدهنون . قال سيبويه : وزعم قالون أنها فى بعض المصاحف «ودّوا لو تدهن فيدهنوا » بدون نون ، والنصب على جواب التمنى المفهوم من ودّوا ، والظاهر من اللغة فى معنى الإدهان هو ما ذكرناه أوّلا .

﴿**ولا تطع كل حلاف**﴾ أى كثير الحلف بالباطل ﴿**مهين**﴾ فعيل من المهانة ، وهى القلة فى الرأى والتمييز . وقال مجاهد : هو الكذاب . وقال قتادة : المكثار فى الشرّ ، وكذا قال الحسن . وقيل : هو الفاجر العاجز . وقيل : هو الحقير عند الله . وقيل : هو الذليل . وقيل : هو الوضيع ﴿**هماز مشاء بنميم**﴾ الهماز : المغتاب للناس . قال ابن زيد : هو الذى تهمز بأخيه . وقيل : الهماز : الذى يذكر الناس فى وجوههم ، واللماز الذى يذكرهم فى مغيبهم ، كذا قال أبو العالية والحسن وعطاء بن أبى رباح ، وقال مقاتل عكس هذا . والمشاء بنميم : الذى يمشى بالنميمة بين الناس ليفسد بينهم ، يقال : نمّ ينم : إذا سعى بالفساد بين الناس ومنه قول الشاعر :

ومولى كبيت النمل لا خير عنده ... لمولاه إلا سعيه بنميم

وقيل : النميم : جمع نميمة ﴿ **مناع للخير** ﴾ أى بخيل بالمال لا ينفقه فى وجهه . وقيل : هو الذى يمنع أهله وعشيرته عن الإسلام ، قال الحسن يقول لهم : من دخل منكم فى دين محمد لا أنفعه بشىء أبدا ﴿ **معتد أثيم** ﴾ أى متجاوز الحدّ فى الظلم كثير الإثم ﴿ **عتل** ﴾ قال الواحدى : المفسرون يقولون هو : الشديد الخلق الفاحش الخلق. وقال الفراء: هو الشديد الخصومة فى الباطل . وقال الزجاج : هو الغليظ الجافى ، وقال الليث : هو الأكول المنوع ، يقال : عتلت الرجل أعتله : إذا جذبته جذبا عنيفا ، ومنه قول الشاعر :

نفرعه فرعا لسنا نعتله

﴿ **بعد ذلك زنيم** ﴾ أى هو بعد ما عدّ من معايبه زنيم ، والزنيم : هو الدعىّ الملصق بالقوم وليس هو منهم ، مأخوذ من الزنمة المتدلية فى حلق الشاة أو الماعز ، ومنه قول حسان :

زنيم تداعاه الرجال زيادة كما زيد فى عرض الأديم الأكارع

وقال سعيد بن جبير : الزنيم :المعروف بالشرّ . وقيل : هو رجل من قريش كان له زنمة كزنمة الشاة . وقيل : هو الظلوم . ﴿ **أن كان ذا مال وبنين** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **لا تطع** ﴾ أى لا تطع مَنْ هذه مثالبه لكونه ذا مال وبنين. قال الفراء والزجاج : أى لأن كان ، والمعنى : لا تطعه لماله وبنيه . قرأ ابن عامر وأبو جعفر والمغيرة وأبو حيوة : ﴿ **أن كان**﴾ بهمزة واحدة ممدودة على الاستفهام ، وقرأ حمزة وأبو بكر والمفضل : « أأن كان » بهمزتين مخففتين ، وقرأ الباقون بهمزة واحدة على الخبر ، وعلى قراءة الاستفهام يكون المراد به: التوبيخ والتقريع حيث جعل مجازاة النعم التى خوّله الله من المال والبنين أن كفر به وبرسوله ، وقرأ نافع فى رواية عنه بكسر الهمزة على الشرط ، وجملة : ﴿ **إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأوّلين** ﴾ مستأنفة جارية مجرى التعليل للنهى ، وقد تقدّم معنى أساطير الأوّلين فى غير موضع ﴿ **سنسمه على الخرطوم** ﴾ أى سنسمه بالكىّ على خرطومه . قال أبو عبيدة وأبو زيد والمبرد : الخرطوم :الأنف. قال مقاتل : سنسمه بالسواد على الأنف ، وذلك أنه يسود وجهه قبل دخول النار . قال الفراء : والخرطوم وإن كان قد خصّ بالسمة فإنه فى مذهب الوجه ، لأن بعض الوجه يؤدى عن بعض . قال الزجاج : سيجعل له فى الآخرة العلم الذى يعرف به أهل النار من اسوداد وجوههم . وقال قتادة : سنلحق به شينا لا يفارقه ، واختار هذا ابن قتيبة . قال: والعرب تقول : قد وسمه ميسم سوء يريدون ألصق به عارا لا يفارقه ، فالمعنى : أن الله ألحق به عاراً لا يفارقه كالوسم على الخرطوم . وقيل : معنى ﴿**سنسمه** ﴾ : سنحطمه بالسيف . وقال النضر بن شميل : المعنى: سنحدّه على شرب الخمر ، وقد يسمى الخمر بالخرطوم، ومنه قول الشاعر :

تظل يومك فى لهو وفى طرب وأنت بالليل شراب الخراطيم

وقد أخرج عبد الرزاق والفريابى وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وأبو الشيخ فى العظمة ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى

الأسماء والصفات ، والخطيب فى تاريخه ، والضياء فى المختارة عن ابن عباس قال : إن أوّل شيء خلقه الله القلم ، فقال له : اكتب ، فقال : يارب، وما أكتب ؟ قال : اكتب القدر ، فجرى من ذلك اليوم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة ، ثم طوى الكتاب ورفع القلم ، وكان عرشه على الماء ، فارتفع بخار الماء ففتقت منه السموات ، ثم خلق النون فبسطت الأرض عليه ، والأرض على ظهر النون ، فاضطرب النون فمادت الأرض ، فأثبتت الجبال ، فإن الجبال لتفخر على الأرض إلى يوم القيامة ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ **نون . والقلم وما يسطرون** ﴾ (١) .

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن مردويه عن عبادة بن الصامت سمعت رسول اللهّ ﷺ يقول : « إن أوّل ما خلق الله القلم ، فقال له: اكتب ، فجرى بما هو كائن إلى الأبد » (٢) . وأخرج ابن جرير من حديث معاوية بن قرّة عن أبيه مرفوعا نحوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال : إن الله خلق النون ، وهى الدواة وخلق القلم، فقال : اكتب ؟ ، قال : وما أكتب ؟، قال : اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة .

وأخرج الحكيم الترمذى عن أبى هريرة مرفوعا نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن ابن عباس قال : ﴿ **ن** ﴾ : الدواة . وأخرج ابن مردويه عنه قال : قال رسول اللهّ ﷺ : « النون: السمكة التى عليها قرار الأرضين، والقلم الذى خطّ به ربنا عزّ وجل القدر خيره وشرّه وضرّه ونفعه» ﴿ **وما يسطرون** ﴾ قال: «الكرام الكاتبون ». وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه من طرق عن ابن عباس فى قوله: ﴿**وما يسطرون** ﴾ قال: وما يعلمون.

وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد ومسلم وابن المنذر والحاكم وابن مردويه عن سعد بن هشام قال : أتيت عائشة فقلت : يا أمّ المؤمنين ، أخبرينى بخلق رسول اللهّ ﷺ ، قالت : كان خلقه القرآن ، أما تقرأ القرآن : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (٣) . وأخرج ابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل ، والواحدى عنها قالت : ما كان أحد أحسن خلقا من رسول اللهّ ﷺ ، ما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته إلا قال : لبيك ، فلذلك أنزل الله: ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (٤) . وأخرج ابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن أبى الدرداء قال: سئلت عائشة عن خلق رسول اللهّ ﷺ فقالت : كان خلقه القرآن ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه (٥) . وأخرج ابن أبى شيبة ، والترمذى وصححه ، وابن مردويه عن أبى عبد الله الجدلى قال : قلت لعائشة : كيف كان خلق رسول اللهّ ﷺ ؟ قالت : لم يكن فاحشا

---

(١) ابن جرير ٢٩/ ١٠ وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٨ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ١١٩ .

(٢) الترمذى فى التفسير (٣٣١٩) وفى القدر (٢١٥٥) وقال : « حسن غريب من هذا الوجه » .

(٣) أحمد ٦/ ٩١ ، ١٦٣ ومسلم فى صلاة المسافرين (٧٤٦/ ١٣٩) وصححه الحاكم ٢/ ٤٩٩ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) أبو نعيم فى الدلائلّ ص ١٣٩ . (٥) البيهقى فى الدلائل ١/ ٣٠٩ ، ٣١٠ .

ولا متفاحشا ، ولا صخابا فى الأسواق ، ولا يجزى السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح [١] .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فستبصر ويبصرون** ﴾ قال : تعلم ويعلمون يوم القيامة ﴿**بأيكم المفتون**﴾ قال : الشيطان ، كانوا يقولون : إنه شيطان وإنه مجنون . وأخرج ابن جرير عنه فى الآية قال: بأيكم المجنون . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله: ﴿ **ودّوا لو تدهن فيدهنون** ﴾ يقول : لو ترخص لهم فيرخصون . وأخرج ابن مردويه عنه أيضا : ﴿ **ولا تطع كل حلاف مهين** ﴾ الآية قال : يعنى : الأسود بن عبد يغوث . وأخرج ابن مردويه عن أبى عثمان النهدى قال : قال مروان لما بايع الناس ليزيد : سنة أبى بكر وعمر فقال عبد الرحمن بن أبى بكر: إنها ليست بسنة أبى بكر وعمر ولكنها سنة هرقل ، فقال مروان : هذا الذى أنزل فيه : ﴿ والذى قال لوالديه أفٍّ لكما ﴾ الآية [الأحقاف:١٧] . فسمعت ذلك عائشة فقالت : إنها لم تنزل فى عبد الرحمن ، ولكن نزل فى أبيك : ﴿ **ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم** ﴾ [٢] . وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزل على النبى ﷺ : ﴿**ولا تطع كل حلاف مهين . هماز مشاء بنميم** ﴾ فلم نعرف حتى نزل عليه ﴿**بعد ذلك زنيم** ﴾ فعرفناه له زنمة كزنمة الشاة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : العتل : هو الدعىّ ، والزنيم :هو المريب الذى يعرف بالشرّ . وأخرج عبد بن حميد وابن عساكر عنه قال : الزنيم : هو الدعىّ . وأخرج الفريابى وعبد بن حميد وابن المنذر، والحاكم وصححه عنه أيضا قال : الزنيم الذى يعرف بالشرّ كما تعرف الشاة بزنمتها . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال: هو الرجل يمرّ على القوم ، فيقولون : رجل سوء . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿**زنيم**﴾ قال: ظلوم ، وقد قيل : إن هذه الآيات نزلت فى الأخنس بن شريق . وقيل : فى الوليد بن المغيرة .

﴿ **إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (٣١) عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ**

---

(١) ابن أبى شيبة (٥٣٨٢) والترمذى فى البر والصلة (٢٠١٦) وقال : «حسن صحيح وأبو عبد الله الجدلى اسمه عبدُ بن عبد ويقال: عبد الرحمن بنُ عبد » .

(٢) سبق تخريجه .

كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾

قوله : ﴿ **إنا بلوناهم** ﴾ يعنى : كفار مكة ، فإن الله ابتلاهم بالجوع والقحط بدعوة رسول اللهّ ﷺ عليهم . والابتلاء : الاختبار ، والمعنى : أعطيناهم الأموال ليشكروا لا ليبطروا ، فلما بطروا ابتليناهم بالجوع والقحط ﴿**كما بلونا أصحاب الجنة** ﴾ المعروف خبرهم عندهم ، وذلك أنها كانت بأرض اليمن على فرسخين من صنعاء لرجل يؤدى حق الله منها ، فمات وصارت إلى أولاده ، فمنعوا الناس خيرها ، وبخلوا بحقّ الله فيها ، قال الواحدى : هم قوم من ثقيف كانوا مسلمين ورثوا من أبيهم صنيعة فيها جنات وزرع ونخيل وكان أبوهم يجعل مما فيها من كل شىء حظا للمساكين عند الحصاد والصرام ، فقالت بنوه : المال قليل ، والعيال كثير ، ولا يسعنا أن نفعل كما كان يفعل أبونا ، وعزموا على حرمان المساكين ، فصارت عاقبتهم إلى ما قصّ الله فى كتابه . قال الكلبى : كان بينهم وبين صنعاء فرسخان ابتلاهم الله بأن حرق جنتهم . وقيل : هى جنة كانت بصوران ، وصوران على فراسخ من صنعاء ، وكان أصحاب هذه الجنة بعد رفع عيسى بيسير ﴿ **إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين** ﴾ أى حلفوا ليقطعنها داخلين فى وقت الصباح ، والصرم :القطع للثمر والزرع . وانتصاب ﴿**مصبحين**﴾ على الحال من فاعل ليصرمنها ، والكاف فى : ﴿ **كما بلونا** ﴾ نعت مصدر محذوف، أى بلوناهم ابتلاء كما بلونا ، وما مصدرية ، أو بمعنى الذى ، وإذ ظرف لبلونا منتصب به ، وليصرمنها جواب القسم ﴿**ولا يستثنون**﴾ يعنى : ولا يقولون : إن شاء الله ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان ما وقع منهم ، أو حال . وقيل : المعنى: ولا يستثنون للمساكين من جملة ذلك القدر الذى كان يدفعه أبوهم إليهم ، قاله عكرمة .

﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون** ﴾ أى طاف على تلك الجنة طائف من جهة الله سبحانه ، والطائف قيل : هو نار أحرقتها حتى صارت سوداء ، كذا قال مقاتل . وقيل : الطائف : جبريل اقتلعها ، وجملة: ﴿ **وهم نائمون**﴾ فى محل نصب على الحال . ﴿ **فأصبحت كالصريم** ﴾ أى كالشىء الذى صرمت ثماره ، أى قطعت ، فعيل بمعنى مفعول، وقال الفراء : كالصريم : كالليل المظلم ، ومنه قول الشاعر :

تطاول ليلك الجون البهيم فما ينجاب عن صبح بهيم

والمعنى : أنها حرقت فصارت كالليل الأسود قال : والصريم : الرماد الأسود بلغة خزيمة، وقال الأخفش : أى كالصبح انصرم من الليل ، يعنى : أنها يبست وابيضت ، وقال المبرد : الصريم : الليل ، والصريم : النهار ، أى ينصرم هذا عن هذا ، وذاك عن هذا . وقيل : سمى الليل :صريما ؛ لأنه يقطع بظلمته عن التصرّف ، وقال المؤرج : الصريم : الرملة؛ لأنها لا يثبت عليها شىء ينتفع به ، وقال الحسن : صرم منها الخير أى قطع ﴿ **فتنادوا مصبحين** ﴾ أى نادى بعضهم بعضا داخلين فى الصباح . قال مقاتل : لما أصبحوا قال بعضهم

لبعض : ﴿ **أن اغدوا على حرثكم** ﴾ و « أن » فى قوله : ﴿**أن اغدوا** ﴾ هى المفسرة لأن فى التنادى معنى القول، أو هى المصدرية ، أى بأن اغدوا ، والمراد : اخرجوا غدوة ، والمراد بالحرث: الثمار والزرع ﴿ **إن كنتم صارمين** ﴾ أى قاصدين للصرم ، والغدوّ يتعدىّ بإلى وعلى ، فلا حاجة إلى تضمينه معنى الإقبال كما قيل ، وجواب الشرط محذوف ، أى إن كنتم صارمين فاغدوا . وقيل: معنى ﴿ **صارمين** ﴾ : ماضين فى العزم ، من قولك : سيف صارم ﴿ **فانطلقوا وهم يتخافتون** ﴾ أى ذهبوا إلى جنتهم وهم يسرّون الكلام بينهم لئلا يعلم أحد بهم ، يقال : خفت يخفت : إذا سكن ولم ينبس ، ومنه قول دريد بن الصمة :

وإنى لم أهلك سلالا ولم أمت خفاتا وكلا ظنه بى عُوَّدِى

وقيل : المعنى : يخفون أنفسهم من الناس حتى لا يروهم ، فيقصدوهم كما كانوا يقصدون أباهم وقت الحصاد ، والأوّل أولى لقوله : ﴿ **أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين** ﴾ فإن « أن » هى المفسرة للتخافت المذكور لما فيه من معنى القول. والمعنى : يسر بعضهم إلى بعض هذا القول، وهو لا يدخل هذه الجنة اليوم عليكم مسكين ، فيطلب منكم أن تعطوه منها ما كان يعطيه أبوكم . ﴿ **وغدوا على حرد قادرين** ﴾ الحرد يكون بمعنى المنع والقصد . قال قتادة ومقاتل والكلبى والحسن ومجاهد : الحرد هنا بمعنى القصد ؛ لأن القاصد إلى الشىء حارد ، يقال : حرد يحرد : إذا قصد ، تقول : حردت حردك ، أى قصدت قصدك ومنه قول الراجز :

أقبل سيل جاء من عند الله يحرد حرد الجنة المغلة (١)

وقال أبو عبيدة والمبرد والقتيبى : على حرد : على منع ، من قولهم : حردت الإبل حردا: إذا قلت ألبانها ، والحرود من النوق هى القليلة اللبن ، وقال السدّى وسفيان والشعبى : ﴿ **على حرد** ﴾ :على غضب ، ومنه قول الشاعر :

إذا جياد الخيل جاءت تردى مملوءة من غضب وحرد

وقول الآخر :

تساقوا على حرد دماء الأساود (٢)

ومنه قيل : أسد حارد ، وروى عن قتادة ومجاهد أيضا أنهما قالا : ﴿ **على حرد** ﴾ : أى على حسد ، وقال الحسن أيضا : على حاجة وفاقة . وقيل : ﴿ **على حرد** ﴾ : على انفراد ، يقال : حرد يحرد حردا أو حرودا : إذا تنحى عن قومه ونزل منفردا عنهم ولم يخالطهم ، وبه

(١) فى المطبوعة : « المحلة » وهو تحريف ، وفى القرطبى : « المغلة » بمعنى ذات الغلة أو التى يجرى الماء فى غللها ، أى فى أصولها .
(٢) الأساود : جمع أسود ، وهو اسم للحية .

قال الأصمعي وغيره . وقال الأزهرى : حرد :اسم قريتهم ، وقال السدّى : اسم جنتهم ، قرأ الجمهور :﴿ **حرد** ﴾ بسكون الراء ، وقرأ أبو العالية وابن السميقع بفتحها ، وانتصاب ﴿**قادرين**﴾ على الحال. قال الفراء : ومعنى ﴿ **قادرين** ﴾ : قد قدروا أمرهم وبنوا عليه ، وقال قتادة : قادرين على جنتهم عند أنفسهم . وقال الشعبى : يعنى : قادرين على المساكين . ﴿ **فلما رأوها**﴾ أى لما رأوا جنتهم وشاهدوا ما قد حلّ بها من الآفة التى أذهبت ما فيها ﴿ **قالوا إنا لضالون** ﴾ أى قال بعضهم لبعض : قد ضللنا طريق جنتنا وليست هذه . ثم لما تأملوا وعلموا أنها جنتهم ، وأن الله سبحانه قد عاقبهم بإذهاب ما فيها من الثمر والزرع قالوا : ﴿ **بل نحن محرومون** ﴾ أى حرمنا جنتنا بسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها ، فأضربوا عن قولهم الأوّل إلى هذا القول . وقيل : معنى قولهم : ﴿**إنا لضالون** ﴾ : أنهم ضلوا عن الصواب بما وقع منهم .

﴿ **قال أوسطهم** ﴾ أى أمثلهم وأعقلهم وخيرهم ﴿ **ألم أقل لكم لولا تسبحون** ﴾ أى هلا تسبحون ، يعنى: تستثنون . وسمى الاستثناء تسبيحا؛ لأنه تعظيم لله وإقرار به ، وهذا يدلّ على أن أوسطهم كان أمرهم بالاستثناء فلم يطيعوه ، وقال مجاهد وأبو صالح وغيرهما : كان استثناؤهم تسبيحا . قال النحاس : أصل التسبيح التنزيه لله عزّ وجل، فجعل التسبيح فى موضع إن شاء الله . وقيل : المعنى : هلا تستغفرون الله من فعلكم وتتوبون إليه من هذه النية التى عزمتم عليها ، وكان أوسطهم قد قال لهم ذلك ، فلما قال لهم ذلك بعد مشاهدتهم للجنة على تلك الصفة قالوا : ﴿**سبحان ربنا إنا كنا ظالمين** ﴾ أى تنزيها له عن أن يكون ظالما فيما صنع بجنتنا، فإن ذلك بسبب ذنبنا الذى فعلناه . وقيل: معنى تسبيحهم : الاستغفار ، أى نستغفر ربنا من ذنبنا إنا كنا ظالمين لأنفسنا فى منعنا للمساكين .

﴿ **فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون** ﴾ أى يلوم بعضهم بعضا فى منعهم للمساكين وعزمهم على ذلك ، ثم نادوا على أنفسهم بالويل حيث قالوا : ﴿ **يا ويلنا إنا كنا طاغين** ﴾ أى عاصين متجاوزين حدود الله بمنع الفقراء وترك الاستثناء. قال ابن كيسان : أى طغينا نعم الله فلم نشكرها كما شكرها أبونا من قبل ، ثم رجعوا إلى الله وسألوه أن يعوضهم بخير منها فقالوا: ﴿ **عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها** ﴾ لما اعترفوا بالخطيئة رجوا من الله عزّ وجل أن يبدلهم جنة خيرا من جنتهم . قيل : إنهم تعاقدوا فيما بينهم وقالوا : إن أبدلنا الله خيرا منها لنصنعنّ كما صنع أبونا ، فدعوا الله وتضرّعوا فأبدلهم من ليلتهم ما هو خير منها . قرأ الجمهور: ﴿**يبدلنا** ﴾ بالتخفيف ، وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتشديد ، وهما لغتان ، والتبديل: تغيير ذات الشىء ، أو تغيير صفته ، والإبدال : رفع الشىء جملة ووضع آخر مكانه، كما مضى فى سورة سبأ ﴿ **إنا إلى ربنا راغبون** ﴾ أى طالبون فيه الخير راجون لعفوه راجعون إليه، وعدى بإلى وهو إنما يتعدى بعن أو فى ؛ لتضمينه معنى الرجوع . ﴿ **كذلك**

العذاب ﴾ أى مثل ذلك العذاب الذى بلوناهم به وبلونا أهل مكة عذاب الدنيا ، والعذاب مبتدأ مؤخر و ﴿ **كذلك** ﴾ خبره ﴿**ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون** ﴾ أى أشد وأعظم لوكان المشركون يعلمون أنه كذلك ولكنهم لا يعلمون .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **كما بلونا أصحاب الجنة** ﴾ قال : هم ناس من الحبشة كان لأبيهم جنة وكان يطعم منها المساكين ، فمات أبوهم فقال بنوه : إن كان أبونا لأحمق كان يطعم المساكين فـ ﴿ **أقسموا ليصرمنها مصبحين** ﴾ وأن لا يطعموا مسكينا . وأخرج ابن جرير عنه : ﴿ **فطاف عليها طائف** ﴾ قال : أمر من الله . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم وابن مردويه عن ابن مسعود قال : قال رسول اللهﷺ : «إياكم والمعصية فإن العبد ليذنب الذنب الواحد فينسى به الباب من العلم ، وإن العبد ليذنب فيحرم به قيام الليل ، وإن العبد ليذنب الذنب فيحرم به رزقاً قد كان هيئ له »، ثم تلا رسول اللهﷺ : ﴿ **فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم** ﴾ « قد حرموا خير جنتهم بذنبهم » . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **كالصريم** ﴾ قال : مثل الليل الأسود . وأخرج ابن المنذر عنه : ﴿ **وهم يتخافتون** ﴾ قال: الإسرار والكلام الخفىّ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه أيضا : ﴿ **على حرد قادرين** ﴾ يقول : ذو قدرة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه أيضا فى قوله : ﴿ **إنا لضالون** ﴾ قال: أضللنا مكان جنتنا . وأخرجا عنه أيضا ﴿**قال أوسطهم** ﴾ قال : أعدلهم .

﴿ **إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٣٤) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦) أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ (٣٨) أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ (٣٩) سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ (٤٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٤١) يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (٤٣) فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (٤٤) وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥) أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٦) أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤٧) فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ (٤٨) لَوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ (٤٩) فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٥٠)**

وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٥٢﴾

لما فرغ سبحانه من ذكر حال الكفار ، وتشبيه ابتلائهم بابتلاء أصحاب الجنة المذكورة ، ذكر حال المتقين وما أعدّه لهم من الخير ، فقال : ﴿ **إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم** ﴾ أى المتقين ما يوجب سخطه من الكفر والمعاصى عنده عزّ وجل فى الدار الآخرة جنات النعيم الخالص الذى لا يشوبه كدر ولا ينغصه خوف زوال ﴿**أفنجعل المسلمين كالمجرمين**﴾ الاستفهام للإنكار ، وكان صناديد كفار قريش يرون وفور حظهم فى الدنيا وقلة حظوظ المسلمين فيها ، فلما سمعوا بذكر الآخرة ، وما يعطى الله المسلمين فيها قالوا : إن صح ما يزعمه محمد لم يكن حالنا وحالهم إلا مثل ما هى فى الدنيا، فقال الله مكذبا لهم رادّا عليهم : ﴿ **أفنجعل المسلمين** ﴾ الآية ، والفاء للعطف على مقدر كنظائره ، ثم وبخهم الله، فقال : ﴿**ما لكم كيف تحكمون** ﴾ هذا الحكم الأعوج كأن أمر الجزاء مفوّض إليكم تحكمون فيه بما شئتم ﴿ **أم لكم كتاب فيه تدرسون**﴾ أى تقرؤون فيه فتجدون المطيع كالعاصى ، ومثل هذا قوله تعالى : ﴿ أم لكم سلطان مبين . فأتوا بكتابكم ﴾ [الصافات: ٥٦ ،٥٧] ، ثم قال سبحانه : ﴿ **إنّ لكم فيه لما تخيرون** ﴾ قرأ الجمهور بكسر إن على أنها معمولة لتدرسون، أى تدرسون فى الكتاب ﴿ **إن لكم فيه لما تخيرون**﴾ فلما دخلت اللام كسرت الهمزة كقوله : علمت إنك لعاقل بالكسر ، أو على الحكاية للمدروس ، كما فى قوله : ﴿ وتركنا عليه فى الآخرين . سلام على نوح فى العالمين ﴾ [الصافات : ٧٨ ، ٧٩] وقيل : قد تمّ الكلام عند قوله : ﴿ **تدرسون** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **إن لكم فيه لما تخيرون**﴾ أى لكم ذلك، وقرأ طلحة بن مصرف والضحاك: « أن لكم » بفتح الهمزة على أن العامل فيه تدرسون مع زيادة لام التوكيد، ومعنى ﴿**تخيرون**﴾: تختارون وتشتهون .

ثم زاد سبحانه فى التوبيخ فقال : ﴿ **أم لكم أيمان علينا بالغة** ﴾ أى عهود مؤكدة موثقة متناهية ، والمعنى : أم لكم أيمان على الله استوثقتم بها فى أن يدخلكم الجنة ، وقوله : ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ متعلق بالمقدر فى ﴿**لكم**﴾ أى ثابتة لكم إلى يوم القيامة لا تخرج عن عهدتها حتى يحكمكم يومئذ ، وجواب القسم قوله : ﴿ **إن لكم لما تحكمون** ﴾ لأن معنى ﴿**أم لكم أيمان** ﴾ أى أم أقسمنا لكم . قال الرازى : والمعنى : أم ضمنا لكم وأقسمنا لكم بأيمان مغلظة متناهية فى التوكيد. وقيل : قد تمّ الكلام عند قوله : ﴿ **إلى يوم القيامة** ﴾ ثم ابتدأ فقال : ﴿ **إن لكم لما تحكمون** ﴾ أى ليس الأمر كذلك . قرأ الجمهور : ﴿ **بالغة** ﴾ بالرفع على النعت لأيمان ، وقرأ الحسن وزيد بن علىّ بنصبها على الحال من أيمان ؛ لأنها قد تخصصت بالوصف ، أو من الضمير فى لكم أو من الضمير فى علينا . ﴿ **سلهم أيهم بذلك زعيم** ﴾ أى سل يا محمد الكفار موبخا لهم ومقرّعا أيهم بذلك الحكم الخارج عن الصواب كفيل لهم بأن لهم فى الآخرة

ما للمسلمين فيها . وقال ابن كيسان : الزعيم هنا : القائم بالحجة والدعوى . وقال الحسن : الزعيم : الرسول.

﴿ **أم لهم شركاء** ﴾ يشاركونهم فى هذا القول ويوافقونهم فيه ﴿ **فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين** ﴾ فيما يقولون وهو أمر تعجيز ، وجواب الشرط محذوف . وقيل : المعنى : أم لهم شركاء يجعلونهم مثل المسلمين فى الآخرة. ﴿**يوم يكشف عن ساق** ﴾ يوم ظرف لقوله : ﴿**فليأتوا**﴾ أى فليأتوا بها يوم يكشف عن ساق ، ويجوز أن يكون ظرفا لفعل مقدّر ، أى اذكر يوم يكشف . قال الواحدى : قال المفسرون فى قوله : ﴿ **عن ساق** ﴾ عن شدّة من الأمر . قال ابن قتيبة : أصل هذا أن الرجل إذا وقع فى أمر عظيم يحتاج إلى الجدّ فيه شمر عن ساقه ، فيستعار الكشف عن الساق فى موضع الشدة . وأنشد لدريد بن الصمة :

كميش [1] الإزار خارج نصف ساقه صبور على الجلاء طلاع أنجد

وقال : وتأويل الآية يوم يشتدّ الأمر كما يشتدّ ما يحتاج فيه إلى أن يكشف عن ساق ، قال أبو عبيدة : إذا اشتد الحرب والأمر قيل : كشف الأمر عن ساقه ، والأصل فيه من وقع فى شىء يحتاج فيه إلى الجدّ شمر عن ساقه، فاستعير الساق والكشف عن موضع الشدّة ، وهكذا قال غيره من أهل اللغة ، وقد استعملت ذلك العرب فى أشعارها، ومن ذلك قول الشاعر :

فتى الحرب إن عضت به الحرب عضها وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرا

وقول آخر :

والخيل تعدو عند وقت الإشراق وقامت الحرب بنا على ساق

وقول آخر أيضا :

قد كشفت عن ساقها فشدّوا وجدّت الحرب بكم فجدّوا

وقول آخر أيضا فى سنة :

قد كشفت عن ساقها حمرا ء تبرى اللحم عن عراقها

وقيل : ساق الشىء : أصله وقوامه كساق الشجرة وساق الإنسان ، أى يوم يكشف عن ساق الأمر فتظهر حقائقه . وقيل : يكشف عن ساق جهنم . وقيل : عن ساق العرش وقيل: هو عبارة عن القرب . وقيل : يكشف الرب سبحانه عن نوره ، وسيأتى فى آخر البحث ما هو الحق ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل ، قرأ الجمهور : ﴿**يكشف** ﴾ بالتحتية مبنيا للمفعول ، وقرأ ابن مسعود وابن عباس وابن أبى عبلة : « تكشف » بالفوقية مبنيا للفاعل، أى الشدّة أو الساعة ، وقرئ بالفوقية مبنيا للمفعول ، وقرئ بالنون ، وقرئ بالفوقية المضمومة

(١) الكميش : الماضى العزوم السريع فى أموره .

وكسر الشين من أكشف الأمر ، أى دخل فى الكشف ﴿**ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون**﴾ قال الواحدى : قال المفسرون : يسجد الخلق كلهم لله سجدة واحدة ويبقى الكفار والمنافقون يريدون أن يسجدوا فلا يستطيعون ؛ لأن أصلابهم تيبس فلا تلين للسجود ، قال الربيع بن أنس: يكشف عن الغطاء فيقع من كان آمن بالله فى الدنيا فيسجدون له ، ويدعى الآخرون إلى السجود فلا يستطيعون ؛ لأنهم لم يكونوا آمنوا بالله فى الدنيا، وانتصاب ﴿ **خاشعة أبصارهم** ﴾ على الحال من ضمير يدعون ، وأبصارهم مرتفع به على الفاعلية ، ونسبة الخشوع إلى الأبصار ، وهو الخضوع والذلة ؛ لظهور أثره فيها ﴿ **ترهقهم ذلة**﴾ أى تغشاهم ذلة شديدة وحرسة وندامة ﴿ **وقد كانوا يدعون إلى السجود** ﴾ أى فى الدنيا ﴿ **وهم سالمون** ﴾ أى معافون عن العلل متمكنون من الفعل ، قال إبراهيم التيمى : يدعون بالأذان والإقامة فيأبون . وقال سعيد بن جبير : يسمعون حىّ على الفلاح فلا يجيبون . قال كعب الأحبار: والله ما نزلت هذه الآية إلا فى الذين يتخلفون عن الجماعات . وقيل : يدعون بالتكليف المتوجه عليهم بالشرع فلا يجيبون ، وجملة: ﴿ **وهم سالمون** ﴾ فى محل نصب على الحال من ضمير يدعون .

﴿ **فذرنى ومن يكذب بهذا الحديث** ﴾ أى خل بينى وبينه وكل أمره إلى فأنا أكفيكه . قال الزجاج : معناه: لا يشتغل به قلبك ، كله إلى فأنا أكفيك أمره ، والفاء لترتيب ما بعدها من الأمر على ما قبلها ، و « من » منصوب بالعطف على ضمير المتكلم ، أو على أنه مفعول معه ، والمراد بهذا الحديث :القرآن ، قاله السدّى ، وقيل : يوم القيامة ، وفى هذا تسلية لرسول الله ﷺ ، وجملة : ﴿ **سنستدرجهم من حيث لا يعلمون** ﴾ مستأنفة لبيان كيفية التعذيب لهم المستفاد من قوله : ﴿ **ذرنى ومن يكذب بهذا الحديث** ﴾ ، والضمير عائد إلى من باعتبار معناها، والمعنى : سنأخذهم بالعذاب على غفلة ونسوقهم إليه درجة فدرجة حتى نوقعهم فيه من حيث لا يعلمون أن ذلك استدراج ؛ لأنهم يظنونه إنعاما ولا يفكرون فى عاقبته ، وما سيلقون فى نهايته. قال سفيان الثورى : يسبغ عليهم النعم وينسيهم الشكر ، وقال الحسن : كم من مستدرج بالإحسان إليه ، وكم من مفتون بالثناء عليه ، وكم من مغرور بالستر عليه ، والاستدراج : ترك المعاجلة، وأصله النقل من حال إلى حال ، ويقال : استدرج فلان فلانا ، أى استخرج ما عنده قليلا قليلا ، ويقال : درّجه إلى كذا واستدرجه يعنى : أدناه إلى التدريج فتدرج هو.

ثم ذكر سبحانه أنه يمهل الظالمين فقال : ﴿ **وأملى لهم** ﴾ أى أمهلهم ليزدادوا إثما ، وقد مضى تفسير هذا فى سورة الأعراف والطور. وأصل الملاوة : المدّة من الدهر ، يقال : أملى الله له ، أى أطال له المدّة ، والملا : مقصور الأرض الواسعة ، سميت به ، لامتدادها ﴿ **إن كيدى متين** ﴾ أى قوىّ شديد فلا يفوتنى شىء ، وسمى سبحانه إحسانه كيدا كما سماه استدراجا، لكونه فى صورة الكيد باعتبار عاقبته ، ووصفه بالمتانة لقوّة أثره فى التسبب للهلاك ﴿**أم تسألهم أجرا**﴾ أعاد سبحانه الكلام إلى ما تقدّم من قوله : ﴿ **أم لهم شركاء** ﴾ أى أم

تلتمس منهم ثوابا على ما تدعوهم إليه من الإيمان بالله ﴿ **فهم من مغرم مثقلون** ﴾ المغرم : الغرامة ، أى فهم من غرامة ذلك الأجر ، ومثقلون ، أى يثقل عليهم حمله لِشُحِهِم ببذل المال ، فأعرضوا عن إجابتك بهذا السبب ، والاستفهام للتوبيخ والتقريع لهم ، والمعنى : أنك لم تسألهم ذلك ولم تطلبه منهم ﴿ **أم عندهم الغيب فهم يكتبون** ﴾ أى اللوح المحفوظ ، أو كل ما غاب عنهم ، فهم من ذلك الغيب يكتبون ما يريدون من الحجج التى يزعمون أنها تدل على قولهم ويخاصمونك بما يكتبونه من ذلك ويحكمون لأنفسهم بما يريدون ويستغنون بذلك عن الإجابة لك والامتثال لما تقوله .

﴿ **فاصبر لحكم ربك** ﴾ أى لقضائه الذى قد قضاه فى سابق علمه ، قيل : والحكم هنا هو إمهالهم وتأخير نصرة رسول الله ﷺ عليهم . وقيل : هو ما حكم به عليه من تبليغ الرسالة . وقيل : وهذا منسوخ بآية السيف ﴿**ولا تكن كصاحب الحوت** ﴾ يعنى : يونس عليه السلام ، أى : لا تكن مثله فى الغضب والضجر والعجلة والظرف فى قوله : ﴿**إذ نادى** ﴾ منصوب بمضاف محذوف ، أى لا تكن حالك كحاله وقت ندائه ، وجملة : ﴿ **وهو مكظوم** ﴾ فى محل نصب على الحال من فاعل نادى ، والمكظوم : المملوء غيظا وكربا . قال قتادة : إن الله يعزّى نبيه ﷺ ويأمره بالصبر ولا يعجل كما عجل صاحب الحوت ، وقد تقدّم بيان قصته فى سورة الأنبياء ويونس والصافات ، وكان النداء منه بقوله : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء:٨٧] وقيل : إن المكظوم : المأخوذ بكظمه وهو مجرى النفس ، قاله المبرّد. وقيل : هو المحبوس ، والأول أولى ، ومنه قول ذى الرّمة :

وأنت من حبّ مىّ مضمر حزنا عانى الفؤاد قريح القلب مكظوم

﴿ **لولا أن تداركه نعمة من ربه** ﴾ أى لولا أن تدارك صاحب الحوت نعمة من الله وهى توفيقه للتوبة فتاب الله عليه ﴿ **لنبذ بالعراء** ﴾ أى لألقى من بطن الحوت على وجه الأرض الخالية من النبات ﴿ **وهو مذموم** ﴾ أى يذم ويلام بالذنب الذى أذنبه ويطرد من الرحمة ، والجملة فى محل نصب على الحال من ضمير نبذ . قال الضحاك : النعمة هنا : النبوّة . وقال سعيد بن جبير : عبادته التى سلفت ، وقال ابن زيد : هى نداؤه بقوله : ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء : ٨٧] . وقيل : مذموم : مبعد . وقيل : مذنب . قرأ الجمهور: ﴿**تداركه** ﴾ على صيغة الماضى ، وقرأ الحسن وابن هرمز والأعمش بتشديد الدال . والأصل : تتداركه بتاءين مضارعا فأدغم ، وتكون هذه القراءة على حكاية الحال الماضية ، وقرأ أبى وابن مسعود وابن عباس : «تداركته » بتاء التأنيث . ﴿ **فاجتباه ربه** ﴾ أى استخلصه واصطفاه واختاره للنبوة ﴿ **فجعله من الصالحين** ﴾ أى الكاملين فى الصلاح وعصمه من الذنب . وقيل : ردّ إليه النبوة وشفعه فى نفسه وفى قومه وأرسله إلى مائة ألف أو يزيدون كما تقدّم .

﴿ **وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ « إن » هي المخففة من الثقيلة ، قرأ الجمهور : ﴿**ليزلقونك**﴾ بضم الياء من أزلقه، أي أزل رجله ، يقال : أزلقه عن موضعه: إذا نحاه ، وقرأ نافع وأهل المدينة بفتحها من زلق عن موضعه : إذا تنحى . قال الهروى : أى فيغتالونك بعيونهم فيزلقونك عن مقامك الذى أقامك الله فيه عداوة لك ، وقرأ ابن عباس وابن مسعود والأعمش ومجاهد وأبو وائل : « ليرهقونك » أى يهلكونك . وقال الكلبى : ﴿**يزلقونك**﴾ أى يصرفونك عما أنت عليه من تبليغ الرسالة ، وكذا قال السدّى وسعيد بن جبير، وقال النضر بن شميل والأخفش : يفتنونك . وقال الحسن وابن كيسان : ليقتلونك قال الزجاج: فى الآية مذهب أهل اللغة ، والتأويل أنهم من شدة إبغاضهم وعداوتهم يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك ، وهذا مستعمل فى الكلام ، يقول القائل : نظر إلى نظرا يكاد يصرعنى ، ونظرا يكاد يأكلنى . قال ابن قتيبة : ليس يريد الله أنهم يصيبونك بأعينهم كما يصيب العائن بعينه ما يعجبه ، وإنما أراد أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظرا شديدا بالعداوة والبغضاء يكاد يسقطك ، كما قال الشاعر:

يتقارضون إذا التقوا فى مجلس نظرا يـزل مـواطئ الأقـدام

﴿ **لما سمعوا الذكر**﴾ أى وقت سماعهم للقرآن ؛ لكراهتهم لذلك أشدّ كراهة، ولما ظرفية منصوبة بـ﴿**يزلقونك** ﴾ . وقيل : هى حرف ، وجوابها محذوف لدلالة ما قبله عليه ، أى لما سمعوا الذكر كادوا يزلقونك ﴿**ويقولون إنه لمجنون** ﴾ أى ينسبونه إلى الجنون إذا سمعوه يقرأ القرآن ، فردّ الله عليهم بقوله : ﴿ **وما هو إلا ذكر للعالمين**﴾ والجملة مستأنفة ، أو فى محل نصب على الحال من فاعل يقولون ، أى والحال أنه تذكير وبيان لجميع مايحتاجون إليه ، أو شرف لهم كما قال سبحانه : ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف:٤٤] . وقيل : الضمير لرسول الله ﷺ وأنه مذكر للعالمين أو شرف لهم .

وقد أخرج البخارى وغيره عن أبى سعيد قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، ويبقى من كان يسجد فى الدنيا رياء وسمعة ، فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقا واحدا » وهذا الحديث ثابت من طرق فى الصحيحين وغيرهما ، وله ألفاظ فى بعضها طول ، وهو حديث مشهور معروف (١) . وأخرج ابن منده عن أبى هريرة فى الآية قال : يكشف الله عزّ وجل عن ساقه . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن منده عن ابن مسعود فى الآية قال : يكشف عن ساقه تبارك وتعالى . وأخرج أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات وضعفه ، وابن عساكر عن أبى موسى عن النبىّ ﷺ فى الآية قال : « عن نور عظيم فيخرّون له سجدا»(٢) . وأخرج

(١) أحمد ٣/ ١٦، ١٧ والبخارى فى التفسير (٤٩١٩) ومسلم فى الإيمان (١٨٣ / ٣٠٢) والدارمى ٢/ ٣٢٦.
(٢) أبو يعلى (٧٢٨٣) وابن جرير ٢٩/ ٢٧ والبيهقى فى الأسماء والصفات ٢/ ٨٣ وإسناده ضعيف ، وقال ابن كثير ٧/ ٩١ : « فيه رجل مبهم».

الفريابى وسعيد بن منصور وابن منده والبيهقى عن إبراهيم النخعى عن ابن عباس فى الآية قال : يكشف عن أمر عظيم ، ثم قال : قد قامت على ساق . قال : وقال ابن مسعود : يكشف عن ساقه فيسجد كل مؤمن ، ويقسو ظهر الكافر فيصير عظما واحدا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الأسماء والصفات عن ابن عباس أنه سئل عن قوله :﴿ **يوم يكشف عن ساق** ﴾ قال : إذا خفى عليكم شىء من القرآن فابتغوه فى الشعر فإنه ديوان العرب أما سمعتم قول الشاعر :

وقامت الحرب بنا على ساق

قال ابن عباس : هذا يوم كرب شديد . روى عنه نحو هذا من طرق أخرى . وقد أغنانا الله سبحانه فى تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ﷺ كما عرفت ، وذلك لا يستلزم تجسيما ولا تشبيها فليس كمثله شىء .

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمن فى دينه كمخاطر

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون**﴾ قال : هم الكفار يدعون فى الدنيا وهم آمنون فاليوم يدعون وهم خائفون . وأخرج البيهقى فى الشعب عنه فى الآية قال : الرجل يسمع الأذان فلا يجيب الصلاة . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عنه أيضا فى قوله : ﴿**ليزلقونك بأبصارهم** ﴾ قال : ينفذونك بأبصارهم .